تفكيك الخطاب الجندريّ في الأدب النّسويُّ العمانيّ
رواية "دلشاد" لبشرى خلفان نموذجا

Deconstructing Gender Discourse in Omani Feminist Literature:
Bushra Khalfan's Dilshad as a Case Study

د. ناصر جمعة السّيابي

جامعة محمّد خامس

المملكة المغربيّة

abualrraha@hotmail.com

تفكيك الخطاب الجندريّ في الأدب النّسويُّ العمانيّ

رواية "دلشاد" لبشرى خلفان نموذجا

د. ناصر جمعة السّيابي

ملخص:

حاولنا من خلال دراستنا هذه، أنّ ننظر في الخصائص الفنيّة للأدب النّسويّ العُمانيّ عامّة - لما يشهده هذا الأخير من نسق إنتاج متسارع - ورواية "دلشاد" لـ"بشرى خلفان" خاصّة. سلّطنا الضّوء بداية على تفكيك الخطاب الجندريّ، الّذي أصبح خطابا نسويّا بأفق خاصّة وبخصوصيات لغويّة مميّزة. لا تكاد تخلو رواية "دلشاد" في مختلف مواضعها، من مفاهيم "الجندر" وما يمثّله من إبراز لدور المرأة ومكانتها في العالم، ومحاربة تلك القوالب النّمطيّة الرّاسخة للعلاقات بين الرّجل والمرأة، الّتي خلقت نوعا من النّقص عند المرأة، بشعورها بدنوّ منزلتها، وعلو منزلة الرّجل في المجتمع المعاصر، وهي ظاهرة سوسيو- ثقافيّة تتجلّى بوضوح في عمليّة خلق النّصّ المتخيّل من طرف المرأة.

الكلمات المفاتيح: الجندر، النّصّ المُتخيّل، النّثر الأنثويّ، سوسيو- ثقافيّة.

ABSTRACT:

This study seeks to examine the aesthetic and artistic characteristics of Omani feminist literature, which has recently witnessed an accelerated pace of production, with particular emphasis on Bushra Khalfan's novel Dilshad. The analysis highlights the deconstruction of gender discourse, which has evolved into a distinctly feminist narrative endowed with unique linguistic features. Dilshad consistently engages with gender-related concepts that foreground women's roles and positions in the world, while simultaneously challenging entrenched stereotypes that structure male–female relations. Such stereotypes have historically contributed to women's internalized sense of inferiority in contrast to the elevated status of men in contemporary society. This phenomenon, rooted in socio-cultural frameworks, becomes especially evident in the process of constructing the imagined literary text authored by women.

Keywords: Gender, Imagined Text, Feminine Prose, Socio-Cultural.

1- مقدمة:

إنّ المهتمّ بموضوع المرأة، سيلاحظ تراكم الدّراسات والأبحاث حولها، مقارنة بنسبة الدّراسات والاهتمامات التّحليليّة الّتي تتناول الرّجل كموضوع لتحليل والنّقاش. فالمرأة حاضرة باستمرار كموضوع للتّفكير، والتّحليل عكس الرّجل، فإنّه خارج الإشكاليّة، لكونه حاضر باستمرار في الذّاكرة الجماعيّة، وفي النّظام الثّقافيّ ذاتا قائمة بذاتها ولذاتها.

إنّ الانتشار الواسع للأدب النّثريّ النّسويّ، عائدٌ بالأساس إلى بروز قضايا إنسانيّة حارقة: كالحريّة النّسويّة، والاستقلاليّة في المجتمع، ومحاولة المرأة، افتكاك حقوقها بترسانة من النّصوص القوانين والتّشريعات المحليّة والدّوليّة؛ نذكر منها مؤتمر المكسيك عام 1975م، الّذي كان عاما دوليّا للمرأة وبداية لما عُرف "بعقد المرأة" من خلال الدّعوة إلى بذل الجهود الدّوليّة للمساواة بين المرأة والرّجل..

كما تبرزقضايا المرأة من خلال: أعمالها الفنيّة كالسّرد الأنثويّ وهو مفهوم تمّ إدخاله مؤخّر ضمن جورب العلوم، فصار له منهج، ومفهوم، والموضوع خاصّ به.

أخذت الجندريّة تتوسّع شيئا فشيئا؛ حتّى صارت من المفاهيم اللّسانيّة المعاصرة، الّتي تتناولها بالدّرس والتّحليل. فهي تحقّق وتتقصّى جميع المواقف الرّجاليّة (الذّكوريّة) من المرأة وقاضاياها.

إنّ الهدف من مثل هذه الدّراسات اللّسانيّة هو: نقد العقليّة البطريكيّة، والتّوجّه لإصلاح وحذف الصّورة المنتقصة من قيمة المرأة في اللّغة، وإلغاء التّمايز الجنسيّ الموجود في الكلام أي في النّصّ النّثريّ المكتوب نفسه.

إنّ لكلّ إنسان جندره الخاصّ به، وهو الّذي يحدّدُ التّوجه المعرفيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ للشّخص في العالم، بواسطة أدوات اللّغة. هذا ما يجعلنا نفهم العالم من حولنا، وما يحكمه من علاقات، بتقاطع التّعبيرات السّيميائيّة في: الفلسفة، والأدب، والتّاريخ، واللّغة، والفنّ...

إنّ هذا المفهوم – الجندريّة – شجّع على بروز نظريّة "الأدب النّسويّ" أو ما يُسمّى "بالكتابة النّسويّة" فصار العمل ينظر إليه من زاويّة "الأنوثة" أو "الذّكورة". وقد صارت المرأة قادرة على خلق منتج عقليّ نوعيّ عالي الجودة على قدر المساواة بالرّجل. فلطالما تمّ عزل المنتجات الأنثويّة؛ لأنّ العمل والرّؤية الذّكوريّة للعالم يُعتبر هو القاعدة.

اعتمدنا في هذه الدّراسة على مناهج استقصائيّة جمعت بين المناهج اللّسانيّة كاللّسانيّات الإدراكيّة واللّسانيّات الجندريّة؛ للحصول على بيانات معمّمة، والّتي لا تتحقّق إلاّ بمساعدة المنهج التّفسيريّ، والتّحليل الجزئيّ، والتّحليل السّياقيّ للنّصّ المُتخيّل، بالاستعانة بالسّرد النّسويّ في اللّغات الرّوسيّة والألمانيّة.

2- مفهوم "الجندر" وعلاقته بالأدب النّسويّ:

2-1- أهمّ الدّراسات الغربيّة لظاهرة الجندريّة:

اطّلعنا – قبل الشّروع في هذا البحث – على مجموعة من الدّراسات الغربيّة المترجمة الّتي تناولت مفهوم "الجندريّة" في الأدب النّسويّ منها مؤلّف "روبن لاكوف" .Lakoff.R. language and Woman S Place 1975. في اللغة الانجليزيّة، و"لويس بيش" .Pusch. L. Das Deutsche als Mannersprache. 1984 و"سانتا ترومل بلوتز" Tromel-plotz S. Frauensprache – Sprache Veranderung. 1982 في اللّغة الألمانيّة.

قدّمت الكاتبة الألمانيّة الشّهيرة "كريستا وولف" رؤيتها للكتابة الأنثويّة قائلة: " في أي خانة يمكن أن يتحدّث أحد عن وجود الكتابة الأنثويّة؟ تستحقّ المرأة فقط وبسبب العوامل التّاريخيّة، والبيولوجيّة المختلفة أن تُصور العالم الخارجيّ بشكل مختلف... يتحمّلن الحقيقة، ويعبّرن عنها بطريقة أخرى. إذن تنتمي بواسطة قانونهنّ الاجتماعيّ المرأة بالتّأكيد على الثّقافة الثّانيّة، لأنّهنّ يوقفن جهودهنّ الشّاقة لتحقيق التّكامل في نظام الحكم المجنون."[1]

أمّا "إيلين شوالتر" فقد درست ما يُسمّى "بالشّعريّة النّسويّة" واستنتجت ثلاثة أنماط أساسيّة من الأنماط "الكتابيّة النّسويّة"، وهي:

- تمثيل "المؤنّث" الّتي تعبّر عن تقليد الشّرائع الغالبة/ التّقليد الأدبيّ البطريركي[2]، واستيعاب المعايير "الجندريّة" الفنيّة المكّونة للفن والأدوار الاجتماعيّة.
- تمثيل "النّسويّة" المواصلة في التّغبير المحتجّ ضدّ المعايير "البطريركيّة" السّائدة وثقافة قيم اللّغة المدافع عن حقوق الأقليّة، بما في ذلك طلب استقلاليّة المرأة.
- تمثيل "الأنوثة" كهويّة خاصّة نسويّة تختلف عن قوانين الذّكور في العرض والكتابة.[3]

إنّ الكثير من النّقاد لا يرون حتميّة العثور على المرأة في النّصوص النّسائيّة، بل قد يكون الرّجل أكثر دقّة في معالجة "الجندريّة" بمفهومها الاجتماعيّة أفضل من المرأة في حدّ ذاتها. وهذا ما تناولته الكاتبة "ماري روتكنين" في مقالها "الجندر والأدب" حيث طرحت مشكلة الأنثويّة والكتابة الأنثويّة.

1- Forster. H.Deutsche Literaturgeschichte. 1999.

2- لبطريركية هي منصب وسلطة البطريرك، وهو لقب يشير إلى رئيس أساقفة ذو صلاحيات واسعة في الكنيسة

3- انظر: Showalter. 1985

2-2- المواضيع المطروقة في الأدب النّسويّ:

- السيرة الذّاتيّة الأنثويّة.
- تصوير الحياة اليوميّة الخاصّة المشتركة بين النّاس، خصوصا حياة المرأة في علاقتها بالعائلة، والأولاد، والأصدقاء، ومثلث الحبّ، والخيانة، والغيرة...
- العائلة والعلاقات المتآلفة والّتي تصبح جدّ مهمّة مقارنة بالجوانب الأخرى للعلاقات الاجتماعيّة في السّرد الأنثويّ.
- العنف المنزليّ المسلّط على الزّوجة، وتداعياته فيما بعد على الأطفال.
- التّمييز السّلبي في المجال المهنيّ بين المرأة والرّجل.
- معارضة تقاليد الأدب الذّكوريّ وعرض الخبرة الأنثويّة في مجالات كانت حكرا على الرّجل كالفيزياء وعلم الفلك والفضاء ....

2-3- الأدب النّسائيّ ورهان الجندر:

يمثّل الخطاب الأدبيّ وسيلة التّعبير الأولى عن "الجندر" والمنظور الاجتماعيّ والثّقافيّ له. والأدب هو الّذي يسمح بدراسة المقاربة الظّاهرة دراسة عميقة؛ لما يحمله في طيّاته من رموز ودلالات صريحة وغير صريحة. فهو الحضن الآمن لكلّ التّصوّرات والتّمثلات. فمع انخراط المرأة فيه، هي بذلك ترسم لنفسها ولمجتمعها تصوّرا جديدا، حسب قناعاتها لا بل أنّها تعيد بناء العالم والذات والإنسان وفق رؤيتها الخاصّة. وهي فرصة سانحة لتغيّر من موقعها من المفعول به إلى فاعل، ومن المنظور إليه إلى النّاظر بعين ثاقبة.

لسائل أن يسأل عندها عن، الدّلالات الجديدة الّتي أنتجها المرأة عن المفاهيم المألوفة؟ وهل تعتمد المرأة لغة خاصّة لبناء وعي الجديد بالمفاهيم؟ وكيف تعمل المرأة على تأنيث اللّغة؟ ووفق أي مقاربة استطاع الأدب النّسويّ أن يحقّق العدالة بين الرقابة الاجتماعيّة القاسيّة والتّحرر الإبداعيّ المنشود؟ وهل نجح الأدب النّسويّ في اقتراح وفرض موقع جديد للمرأة في الحياة العامّة؟

بدأت مهمّة محاربة الخطاب الجندريّ بمهمّة تفكيك وفهم الذّهنيّة الرّجاليّة العربيّة، وهي رؤية تعكس رؤية مجتمع بأكمله. فمفهوم "الجندريّة" لم يتناول بلفظه، بل بمعناه ودلالاته بداية. وربّما كان ذلك أكثر جدوى ونجاعة في نقد الظّاهرة. فهناك العديد من الأعمال الأدبيّة النّسائيّة الّتي شخّصت "الجندريّة" من خلال الفكر والعقليّة الرّجاليّة الذّكوريّة في مواقفها. فاستعمال مفهوم "الجندر" بصريح العبارة ومهاجمة الرّجل وما يسانده من مجتمع ذُكوريّ قد يوقع العمل الأدبيّ في المساءلة القانونيّة خاصّة في مجتمعاتنا العربيّة، الّتي لاتزال حريّة الرّأي والتّعبير تتخبّط في مهدها الصّغير. ربّما نضرب مثلا عن ذلك فأعمال الكاتبة الكويتيّة "ليلى العثمان" قد لاقت مُساءلة قضائيّة.[1] فقد دافعت الكاتبة وأسست في أعمالها - "الرّحيل" الصّادرة سنة 1979م و "في اللّيل تأتي العيون" الصّادرة سنة 1980م - لمبدأ "المُغايرة". وهو مبدأ يحارب

1- للتوسّع أنظر كتاب: في ضيافة الرّقابة، منشورات الزمن، ط1، ص2001.

الإطار المبرمج اجتماعيّا وبيولوجيّا. وما يحمله من أبعاد. إنّ محاكمة بعض الأعمال الأدبيّة الرّمزيّة هو في حدّ ذاته تمظهر للخطاب الجندريّ في المجتمعات العربيّة. كما نشير في هذا الصّدد إلى رواية "مسك الغزال" الصّادرة سنة 1988م للرّوائيّة اللّبنانيّة "حنان الشّيخ" الّتي كانت بمثابة رجّة مجتمعيّة لعلاقة الرّجل بالمرأة. فقد أسندت الرّاويّة مهمّة القصّ بأكمله إلى أربعة نساء من بطلات الرّواية. وجعلت من كلّ واحدة منهنّ تُعري حقيقة المجتمع الرّجاليّ الذّكوريّ، انطلاقا من تجربتها الخاصّة. كانت شخصيّة "معاذ" ابن الصّحراء والباديّة وما يمثّله من عادات وتقاليد اجتماعيّة صارمة كانت شخصية مهتزّة بلا معنى أمام عقلانيّة شخصيّة د "سوزان" الأمريكيّة الّتي وضعت "معاذ" في إشكاليّة ذاته وجسده.

3- تعريف مفهوم "الجندر":

3-1- الفرق بين الجندر والجنس:

يبدو أنّ الفرق واضح بين مفهوم الجندريّة Gender بما هو "النّوع الاجتماعيّ"؛ حيث يشير هذا المصطلح إلى التّفريق بين الذّكر والأنثى على أساس الدّور الاجتماعيّ لكلّ منها، معتمدين معيار القيم السّائدة من مجتمع إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. فنظرة المجتمعات العربيّة للمرأة ليس نفس النّظرة عند المجتمعات الغربيّة، لذلك نجد أنّ مفهوم "الجندريّة" يفرض نفسه بقوّة في هذه المجتمعات مقارنة بما هو عليه في المجتمعات الغربيّة. تحاول المرأة بمختلف الوسائل التّعبيريّة المُتاحة عندها أن تدافع عن نفسها بمقاومة المواقف "الجندريّة"، كنظرة دُونيّة سوسيو-ثقافيّة. أمّا مصطلح الجنس Sex فهو ذلك الاختلاف البيولوجيّ الجسديّ بين الرّجل والمرأة. والحقيقة أنّ "الجندريّة" خرجت من المفهوم الضّيّق للذّكر والأنثى إلى مفهوم المرأة المحدّد ضمن الشّرط الثّقافيّ، الّذي يحدّده المجتمع والذّاكرة الجماعيّة والتّصوّر الذّهنيّ. تجدر الإشارة إلى أنّ "الجندريّة" لا تدرس فقط الجندريّة النّسائيّة، بل لكلا الجنسيْن والعلاقات الّتي يحتفظان بها. فالهويّة الجندريّة للرّجل ينتصر لها المجتمع الثّقافيّ غير انّ الهوية الجندرية المرأة تظلّ جوهر البحث في الدّراسات الجندريّة لكونها هي حاملة الإشكاليّة التّاريخيّة في ذاتها ولذاتها.

حاول العديد من الكُتاب والأساتذة الفرنسيين سنة 2017م التّخلص من تصنيف "الجندريّة" على أساس الجنس "ذكر وأنثى" وذلك من خلال التّوقيع على عريضة لإلغاء التّذكير والتّأنيث بهدف التّخلّص من "سيطرة الفكر الذّكوريّ على لغة موليير" ذلك أنّ الصّفة في اللّغة الفرنسيّة - كما في العربيّة - تتبع الموصوف في التّأنيث والتّذكير. ونادوا بتأنيث اللّغة كمظهر من مظاهر المساواة، وقالوا أنّ اللّغة تواضع اجتماعيّ قادر على التّغيير.

2-3- مفهوم "الجندريّة" وسياقاته:

رغم تعدّد استعمالاته دوليّا ورغم أنّه يتصدّر عناوين المنتديات والمؤتمرات الدّوليّة المهتمّة بالمرأة وقضاياها، يظلّ مصطلح "الجندريّة" مصطلحا ضبابيّا غامضا لم يُعرّف بشكل يجعله قابلا للفهم والممارسة. وهو في الوقت نفسه قادر على أخذ أشكال دلاليّة متباينة ومعاني متشعّبة حسب السّياقات الاجتماعيّة المختلفة. ممّا جعله جسرا مفتوحا أمام العديد من القرارات والإجراءات والمقصود من ذلك أنّ المصطلح انتقل من الحقل الحقوقيّ إلى حقول أخرى أكثر انفتاحا وصار بوابة لمناهج عمل في عدّة قطاعات.

عرّفت منظمة الصّحة العالميّة "الجندر" بأنّه يتمثّل في الخصائص الّتي يحملها الرّجل والمرأة كصفات اجتماعيّة مركّبة لا علاقة لها بالاختلافات العضويّة والجسديّة. أمّا الموسوعة البريطانيّة، فلم تختلف عن سياق التّعريف السّابق، فهو عندها ذاك المصطلح الّذي يفيد استعماله وصف الخصائص الّتي يحملها الرّجل والمرأة كصفات مركّبة اجتماعيّة لا علاقة لها بالاختلافات العضويّة. إنّ الهويّة الجندريّة – بحسب الموسوعة البريطانيّة – ليست ثابتة بالولادة – ذكر أو أنثى، بل تؤثّر فيها العوامل النفسيّة والاجتماعية والثّقافيّة. فالإنسان بإمكانه اكتساب هويّة "جندريّة" جديدة حسب الظّروف الاجتماعيّة الّتي يعيش فيها.

- **الجندريّ كمصطلح إيديولوجيّ:**

إنّ بداية ظهور المصطلح كانت مع الأعمال الفكريّة والمعرفيّة النّسويّة الغربيّة قبل أن يتحوّل إلى مصطلح حقوقيّ. هذا يعني أنّ الحاجة إليه كانت انطلاقا من كتابة المرأة نفسها وتعبيرها عن الحيف والظّلم الّذي لحقها من جهة موقعها في الحياة العامّة، بوصف المرأة أنّها غير قادرة على التّساوي مع الرّجل.

إنّ الهويّة "الجندريّة" تتجلّى في التّمثلات من خلال الخطابات الرّمزيّة كالفن والأدب والخطابات الواقعيّة؛ كتوزيع المهام والمسؤوليات في الواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ. من خلال ثنائيّة الرّمز والواقع تظهر الهويّة "الجندريّة" الّتي يصنعها المجتمع ويبني من خلالها تصوّرا للمرأة ولواقعها ودورها في المجتمع والحياة بشكل عامّ.

انخرط مفهوم "الجندريّة" ضمن حقول معرفيّة مختلفة كالفلسفة والتّاريخ واللّسانيّات والسّوسيولوجيا وعلم النّفس وغيرها. وقد أخذ يتطوّر انطلاقا من سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين.

- **الجندريّة كمصطلح فلسفيّ:**

إنّ بداية استعمال مصطلح "الجندريّة" في الحقل الفلسفيّ يعود إلى خمسينات القرن العشرين مع الجملة الشّهيرة للفيلسوفة الفرنسيّة "سيمون دوبفورا (1908-1986) الّتي وردت في كتابها "الجنس الآخر" **"لا يُولد الإنسان امرأة، إنّما يُصبح كذلك"** وهذه الجملة هي إشارة منها إلى دور المجتمع والثّقافة في خلق الشّرط الّذي يُحدّد هويّة المرأة.

- **الجندريّة كمصطلح حقوقيّ:**

ظهر مصطلح "الجندريّة" أوّل مرّة كمفهوم حقوقيّ مع وثيقة المؤتمر العالميّ للسّكّان والتّنميّة بالقاهرة سنة 1994م. رغم تكرّر المصطلح في أكثر من 50 مرّة في هذه الوثيقة، إلاّ أنّه ظلّ غامضا قابلا لتأويلات

مختلفة حسب فهم كلّ متلقٍ له. فالتّرجمة مصطلح "الجندريّة" إلى "نوع الجنس"، كفارق بيولوجيّ بين الذّكور والإناث ذلك قد يكون عائقا لفهم المصطلح فهما دقيقا من المصدر مباشرة. ثمّ ورد المصطلح في وثيقة أخرى حقوقيّة أكثر من 245 مرّة بنفس الغموض في مؤتمرّ المرأة "ببكين" عام 1995م. هذا الاستعمال غير الدّقيق جعل الكثير من الدّول تطالب بضبط معنى وتعريفا واضحا للمفهوم؛ حتّى لا يختلط مع غيره من المفاهيم الحقوقيّة الأخرى، وكي لا يظلّ عاما ومفتوحا على كلّ الاحتمالات الّتي قد لا تتماشى مع ثوابت ومعتقدات ومرجعيات بعض الدّول خاصّة العربيّة الإسلاميّة منها. فمنهم من يفهمها بأنّها: الجنسيْن، النّوع، الأنثى والذّكر، المرأة، النّساء، المساواة في الحقوق، عدم التّمييز في الأدوار.... إنّ ما يجمع بين كلّ هذه المفاهيم السّابقة أنّها تنتمي إلى نفس المنظومة القيميّة. إنّ "الجندريّة" رؤية دوليّة حول مفهوم المرأة والرّجل وطبيعة منظومة العلاقات الثّقافيّة بينهما. ليست "الجندريّة" دفاعا عن حقّ المرأة تتلاشى وتتوقّف عن الاستعمال بمجرّد الحصول عليها، إنّما هي مستمرّة بوصفها رؤية في قضايا أخرى في علاقة بالمرأة: كالإنجاب والزّواج، والعلاقات الاجتماعيّة...، والأخذ بيد المرأة كي تكون ذاتا مكتملة لذاتها وبذاتها.

4- الجندريّة والاستقبال العربيّ:

كغيره من المفاهيم الغربيّة تمّ التّعامل مع مصطلح "الجندريّة" بالكثير من الحذر والاحتراز وقد يكون مردُّ ذلك إلى الفكر المنادي بالتّصدي إلى كلّ فكرة عربيّة خاصّة تلك الّتي تمسّ من تركيبة المجتمعات العربيّة ذات الخُصوصيّة الدّينيّة المحافظة. لا بل أنّ "الجندريّة" كلفظ مسّ من النّظام الصّوتي للّغة العربيّة، فكلمة "جندر" في حدّ ذاتها لاقت رفضا ممّا جعل الكثيرين من الكتاب والنّقّاد يدعون إلى الاستعاضة بتعبير "النّوع الاجتماعيّ"، بهدف تجاوز هذه الغربة الصّوتيّة. وهنا من أرجع الحذر من استعماله إلى الجانب الدّلاليّ حيث يُخشى أن يكون سببا في التّفكك الأسريّ والتّصدّع في العلاقة بين الرّجل والمرأة.

كلّ هذا الاحتراز والحذر من مفهوم "الجندر" صادر عن المجتمعات العربيّة رغم أنّ هذه المفاهيم في مجملها صادرة عن جمعيات ومنظمات دوليّة ذات صبغة إنسانيّة.

وجدت المرأة العربيّة في مفهوم "الجندريّة" ملاذا للنّضال من أجل المساواة بين المرأة والرّجل، تجعل منها شريكة فاعلة في الحياة. كما اعتمدت على هذا المفهوم كمنهج لتحليل الخطاب السّياسيّ والإعلاميّ والإبداعيّ والدّينيّ والثّقافيّ...

كثيرا ما يطرح سؤال محرج عن مفهوم "الجندريّة" وطريقة اقحامه في كلّ المجالات الحياتيّة، فهو عندهم مفهوم ملغم يطرح عدّة استفهامات كثيرة.

أخذ مصطلح "الجندريّة" يتجذّر في المجتمعات العربيّة، وظهر انعكاسه على الحياة العامّة كمؤسسة الزّواج، والمناداة بالمساواة في الميراث والمساواة في المناصب القياديّة في الدّولة، والإجهاض، واختيار جنس المولود، وزواج المثليين وغيرها من الأمور ذات العلاقة، فهي كلّها مفاهيم بدأت تنتشر في المجتمعات العربيّة.

أخذ مفهوم "الجندريّة" يحيد دلاليّا عن معناه الأوّل – المساواة – إلى معنى التّماثل التّام بين المرأة والرّجل.

أنتج الحراك الحقوقيّ العربيّ العديد من مراكز البحث ودراسات مدنيّة وأهليّة مهتمّة بقضايا المرأة. كما أُنشأت تخصّصات علميّة أكاديميّة مثل ماجستير "الدّراسات النّسائيّة" عام 1997م التّابع لقسم اللّغة الانجليزيّة وآدابها بكليّة الآداب جامعة محمّد الخامس بالرّباط. فالكثير من الجامعات المغاربيّة والشّرقيّة انفتحت على الدّراسات النّسائيّة في الدّرس الأكاديميّ والبحث العلميّ. وظهرت العديد من معاهد الدّراسات النّسائيّة في العالم العربيّ التّابع للجامعة اللّبنانيّة 1973م الّتي تسعى إلى إنجاز بحوث عن المرأة وقضاياه في العالم العربيّ. وصار للمرأة يوما وطنيّا وعيدا يحتفل به ويُنظر فيه في شتّى المجالات المتداخلة في قضايا المرأة فصار يوم 10 أكتوبر من كلّ سنة عيدا للمرأة المغاربيّة وفي مصر يوم 16 من شهر مارس وفي تونس 13 أغسطس ...

4-1- الرّواية النّسائيّة بسلطنة عُمان (التّاريخ، والسّمات، والاتّجاهات):

تؤثّر البيئة الاجتماعيّة والثّقافيّة في الإنتاج الفنيّ تأثيرا بليغا بما في ذلك الأدب. فإمّا أنْ تكون حاضنة له، وإمّا أن تكون مهمّشة. والأدب يحتاج إلى بيئة خصبة ينشأ فيها، فيترعرعُ وينمو، وللتّحسين من جودته يقول النّاقد يوري لوتمان yuri Lotman: " إنّ نشأة المكان الفنيّ جاءت نتيجة لظهور بعض الأفكار والتّصوّرات، الّتي تنظر إلى العمل الفنيّ على أنّه مكان تحدّد أبعاده تحديدا معيّنا، وهذا المكان من صفاته أنّه متناه، غير أنّه يحاكي موضوعا لا متناهيا هو العالم الخارجيّ، الّذي يتجاوز حدود العمل الفنيّ."[1] وبالفعل هو كذلك فكلّما كان المكان أرحب، كان العمل أفضل، فهو الّذي تدور فيه الحوارات وتتحرّك فيها الشّخصيّات وما تنتج عنها من أعمال وأفعال...

ليس المقصود بكلمة البيئة في السياق السابق البيئة بمفهومها الجغرافيّ فقط، بل قد تكون البيئة الاجتماعيّة هي الأخرى مؤثّرة في العمل الفنيّ الأدبيّ. فتنوّع الشّخوص قد يثمر تنّوعا وازدهارا في الأعمال الأدبيّة. فكلّما كان المجتمع كبيرا ومختلفا ولديه من القيم والعادات والتّقاليد والخرافات ما يجعله مخزونا حكائيّا سيتلهم منه الأدباء أفكارهم وقصصهم ورواياتهم. وكلّما كان المجتمع منفتحا على حضارات وثقافات أخرى، كلّما زاد من تنوّع المنتوج الأدبيّ كمّا وكيفا.

إنّ النّاظر إلى البيئة العُمانيّة قبل سنة 1970م، سيلاحظ أنّها تتوزّع إلى بيئات جغرافيّة صغيرة، تكاد تكون منغلقة على نفسها في ترسيخ واضح لمفهوم القبيلة. وهي بيئة تفتقد إلى التّعليم كركيزة حضاريّة مهمّة. سرعان ما ظهرت بعد هذه الفترة نخبة من الشّباب العُمانيّ المثقّف تلقى تكوينا علميّا خارج حدود الوطن. فبدأت تترسّخ في المجتمع ملامح الحياة الثّقافيّة والأدبيّة بظهور بعض الأدباء والكتّاب. وكانت البدايات ذُكوريّة بامتياز مع تغييب وتصحّر للإنتاجات النّسوية تقريبا.

1- حسنين، أحمد وآخرون، جماليات المكان، ط2، الدار البيضاء، 1988، ص68.

2-4- أسباب اختيار رواية "دلشاد" نموذجا:

"دلشاد" واسمها الكامل: "دلشاد: رواية الجوع والعطش" للروائيّة العُمانيّة "بشرى خلفان" أصيلة مدينة مسقط القديمة. هذه الرّواية صدرت لأوّل مرّة عن منشورات دار "تكوين" الكويتيّة عام 2021م. ووصلت إلى القائمة القصيرة العالميّة للرّواية العربيّة لعام 2022م وحصلت على جائزة "كتارا للرّواية العربيّة" في دورتها الثّامنة 2022 لفئة الرّوايات المنشورة. وهي تحكي كما يقول عنها الروائيّ الإيرتري "حجي جابر: "ظاهريّا عند دلشاد الطّفل الّذي يكبر مبتور النّسب وتتقاذفه الحياة الصّعبة في دروب كثيرة لكنّ "دلشاد" في العمق لم يكن سوى فاتحة الكلام لحكاية طويلة تستعرض تاريخ مسقط وحاراتها وناسها البلوش والزّدجال واللّوغان والعرب وهم يتقلّبون بين جوع وشبع..." جاءت الرّواية مغمورة بالأحداث التّاريخيّة، لكنّ هذه الأحداث لم تأت نافرا عن جسد الرّواية منفّرا عن الانسجام معها، فعقب هضمها استطاعت الرّوائيّة إذابتها في طبقات النّصّ فجاءت متسقة سلسة في قلب الحكاية وفي نسيجها الدّاخليّ. اختارت بشرى خلفان شخصيّات مهمّشة لتسرد نضال النّساء العُمانيّات خلال القرن العشرين. ورغم استعمالها لهذه الشّخصيّات المهمّشة استطاعت أن تجعل منها شخصيّات رمزية قادرة على الصّمود والمقاومة أمام القوى الاجتماعيّة والاقتصاديّة ويظهر هذا خاصّة في شخصيّة مريم، الّتي واصلت مسيرة نضال أبيها "دلشاد" في مقاومة إشكال التّمييز الّتي عانت منها منذ الولادة.

3-4- الجندريّة في الرّواية العُمانيّة.

- تعتبر "الطّواف حيث الجمر" للروائيّة "بدريّة الشّحي" العمل النّسائيّ الأول في عمان. رغم أنّ الكثير من النُقاد يقولون بوجود رواية عُمانيّة أخرى قبلها وهي روايّة "قيثارة الأحزان" لسناء الهلاني"، إلاّ أنّ معالمها الفنيّة لم تكن واضحة. وكانت تجربة متعثّرة من حيث البناء والأساليب الفنيّة. فلا يمكن إدراجها ضمن جنس الرّواية مقارنة برواية "الطّواف حول الجمر". والّتي نجد فيها توظيفا واضحا لمقاومة مفهوم الجندريّة، "إذ يجد القارئ في هذه الرّواية علو صوت المرأة الرّافض للصّمت ضدّ الأنساق السّائدة. كما يتّضح أنّ النّصّ يمثّل نضجا فنيّا ولغويّا وعمقا فكريّا.[1]

يرى البعض أنّ الرّواية العُمانيّة لم تنشا خجولة محتشمة متعثّرة بل كانت قويّة أسلوبا وطرحا للمواضيع ساخنة ولم تُجاري الكتابة الذّكوريّة السّائدة. "كما أنّها لم تكن تجربة تقليديّة متخبّطة تغلب عليها ضحالة الفكرة وهشاشة التّسلل للأحداث، بل جاءت محمّلة بكلّ مقوّمات التّجربة الرّوائيّة النّسويّة النّاضجة. وكأنّها ولدت ولادة طبيعيّة لم تحرق معها مراحل الكتابة الرّوائيّة المفقودة."[2]

أخذت الرّواية العُمانيّة النّسويّة تتشكّل شيئا فشيئا نوعيّا وعدديّا وكانت جلّها تقريبا إن لم نقل كلّها تعالج قضايا اجتماعيّة بهدف تحقيق نقلة نوعيّة في مجتمع قبليّ يقدّس الذّكورة. على غرار رواية "الطّواف

---

1 اليحيائيّة، شريفة. قراءة في المشهد السّرديّ الرّوائيّ النّسويّ العثمانيّ، موت الحلم، (2010/1999) مجلة نزوى، 2015م، العدد 81، ص48.

2 المرجع نفسه، ص47

حيث الجمر" "لبدريّة الشّحي" نجد روايات أخرى منها رواية "حفلة الموت" "لفاطمة الشّيدي" ورواية "الأشياء ليست في أماكنها الّتي تعد السّلالم" لهدى حمد ورواية "سيدات القمر" "لجوخة الحارثيّ"... بالإضافة إلى الرّوايات الّتي ناقشت الوضع الاجتماعيّة بمقاربة تاريخيّة منها رواية "دلشاد" و"الباغ" لبشرى خلفان.

إنّ مجهود مقاومة الجندريّة كان يقوى ويضعف من رواية إلى أخرى، ويغيب مرّة ويطفو على السّطح مّرّة أخرى يُصرّح به ويسكت عنه بنسب متفاوتة. إلاّ أنّ المفهوم كان واضحا أكثر من غيره من المناسبات في روايات "صابرة وأصيلة" و"جنون اليأس" و"حارة العور" للرّوائيّة "غالية آل سعيد"، فقد كانت هذه الأعمال تعجّ بقضايا المرأة كالتّعليم والمجتمع الذّكوريّ.

5- مقتطفات من رواية "دلشاد ...سيرة الجوع والشّبع":

- **الأسرة نواة اجتماعيّة أولى:**

تناولت الكاتبة مسألة التّفكك الأسريّ المبكر سواء بالطّلاق أو اليُتم، وتداعيات ذلك على الأطفال وخاصّة على الإناث منهم. فقد تباع وتشترى كالبضاعة تماما بالزّواج المبكر أو بالاستغلال الجنسيّ والتّشغيل دون السّن القانونيّة في سوق الذكورة. تقول الكاتبة واصفة البطل أيّام الطّفولة: كنت يتيمًا، ووحدهم اليتامى يعرفون معنى العري، وكيف يكون البرد في عظامك من لحظة الميلاد حتى الموت".

- **الأعباء الأسريّة للمرأة داخل الأسرة:**

تجسّد الكاتبة صورة مؤلمة للمرأة الأرملة الّتي تعاني الأمرّيْن من أجل تأمين لقمة العيش في غياب تامّ لأي إحاطة اجتماعيّة أو نفسيّة تصارع من أجل البقاء، شغلها الشّاغل تأمين لقمة عيش لها ولأطفالها. تقول بشرى خلفان: نعم، عشت أول عمري بين أمهات كثيرات، لكن ولا واحدة منهن ضمتني إلى صدرها، أو خصتني بلقمة، وعندما كنت في خيمة "ما حليمة" كانت تقسم الأكل بين أولادها أولًا، ثم تتذكرني فتضع شيئًا في فمي."

- **النّظرة الإيتيقيّة للرّجل:**

تحسن "هدى خلفان" تصوير ونقد الصورة النموذجيّة لقداسة الرّجل في المجتمعات العربيّة تقول: "أنّ العالم خلق محمولًا على أكتاف الآباء، وأن السماء تسقط متى ما رحلوا، وأن الحياة، كل الحياة تصبح خالية إن خلا منهم المكان، وأن نظرة العتاب في عيونهم، ما هي إلا دروس قصيرة، تمرر بين القلب والعين."

- **حريّة الاختياروالقرار:**

تشير بشرى خلفان في أكثر من مناسبة إلى قضيّة الزّواج القصريّ من غير موافقة الزّوجة تحت إكراهات المفهوم المرأة عورة ويجب سترها ولا يكون هذا السّتار إلاّ برجل وبما يحمله من صفات الذّكورة تقول: "أمّا أبي أنا فلم يوجد على ما يبدو إلاّ في غضب أمّي، عندما كانت تطلق لعناتها عليّ وعلى الدّنيا وعلى ابن الحرام الّذي زوّجها أبوها إيّاه حتّى يضمن لها السّتر. ثمّ فعلها ومات وتركها بلا ستر وبفم نهم تجتهد كي تبقيه حيّا."

جسّدت الرّاويّة فكرة حريّة الاختيار والقرار من خلال تقلّبات شخصيّة فريدة لصياغة هويّة المرأة العُمانيّة، على طريقتها الخاصّة من خلال: التّحرّر الدّاخليّ والوعيّ الجديد. وذلك عن طريق اختيار أسماء

طفلها: قيس و"ليلى" إن في اختيار أسماء الشّخصيّات بعد رمزيّ دلاليّ؛ أليست ليلى هي تلك الفتاة العربيّة، التّي حُرمت من الزّواج من محبوبها "قيس" قهرا وظلما تحت إكراهات التّقاليد والعادات القبليّة والمجتمع الذّكوريّ.

كانت مسألة الزّواج واختيار شريك الحياة مسألة ذات ثقل وحيّز ورقيّ في كثير من أجزاء الرّواية، أثارت مسألة الصّراع بين الأجيال واختلاف وجهات النّظر، يظهر ذلك في تأرجح مريم حفيدة "دلشاد" بين الامتثال للتّحولات الفكريّة والاقتصاديّة والتّوتّر بين الأجيال إذ تتأرجح هي الأخرى بين طاعة أمّها والتّمرّد على قيود المجتمع. فالزّوج عندها هو ذلك الرّجل القادر على أن يشاركها طموحها ورؤيتها للعالم، ليس مجرّد رجل تجمع بينهما عواطف زائلة زائفة. في ذات السّياق تقارن "مريم" بين زواجها ونظرة ابنتها لذات المسألة، تقول: تسال "فريدة" لأنها حرّة، أمّا أنا، وإن لم أولد عبدة، فإنّ الرّجال اتّفقوا على زواجي... موافقتي أمر مفروغ منه" وفي هذا الحوار إشارة إلى تطوّر مفهوم الزّواج في المجتمع.

- **الحرمان من الأبويّة:**

تصور الكاتبة الحياة العامّة للطّفل عامّة والأنثى خاصّة في تداعيات غياب الأب عنه تقول: "وهكذا تربّينا نحن الأربعة على أباء غائبين وأمّهات حاضرات بخيرهنّ وشرهنّ لكنّهنّ لنا نزر الطّعام الّذي سيمنع الموت عنّا أو يؤجلّه حتّى حين"." دعوت عليهما بموت عاجل وشنيع، ودعوت على أبي الّذي تركني ولم يعد للسّؤال عنّي" وفي هذه الكلمات البسيطة إشارة منها إلى وضعيّة الطّفل دون سند أبويّ. إنّ السّلطة الأبويّة كثيرا ما تظهر من تحت غطاء القيم الدينيّة والتّقاليد الاجتماعيّة وتأثّرها في الوقت نفسه بالظّروف الاقتصاديّة.

- **القضايا الإيديولوجيا:**

تشير الكاتبة بطريقة رمزيّة إلى قوّة المرأة ودفاعها الشّرس عن حقوقها وحرياتها وما تنادي به من أفكار تحريريّة تقول: "بدأت أفهم أنّ التّعوّد سيكون هو طريقي لتجاوز أي شيء وكلّ شيء" وقد تجسّدت تلك القوّة النّاعمة في شخصيّة "مريم"، "مريم" المتحديّة الّتي كسرت كلّ الحواجز الاجتماعيّة في نضالها لتأمين قوت يوم ابنتها "فريدة"، إذ رفضت ترك ابنتها مع عمّتها بعد وفاة زوجها كما هي العادات. ثم تهرب بابنتها إلى ولاية "مطرح" لتشتري متجرا لبيع الأقمشة في سوق ذكوريّ. وتسرد لنا كيف أنّ التّجار رفضوا تواجدها بينهم رغم التزامها بغطاء الوجه.

كشفت الرّاويّة عن الحالة النّفسيّة المضطربة الّتي تعيشها المرأة العُمانيّة والعربيّة عامّة، عند تفكيرها في التّغيير والتّجديد هي مغامرة غير محسوبة العواقب. فهذه شخصيّة "مريم" تعيش صراعا داخليّا بين التّمسك بالتّقاليد والرّغبة في التّغيير. يتجلّى هذا بوضوح في تمسكها بتعليم ابنتها "فريدة" الكاتبة رغم مخاوفها من ردود فعل المجتمع الّذي يرى في تعليم الفتاة تهديدا للنّظام الاجتماعيّ الرّاسخ. إذ لا تزال تتذكّر كلمات زوجها عندما طلبت منه تعليم ابنتها: "البنات لا يكتبن."

- **تشغيل الأطفال دون السّنّ القانونيّة:**

تصوّر الرّاوية حياة طفل معدوم لطّفولة يتحمّل مسؤوليّة إعالة الأسرة والعمل، وهو في حاجة إلى من يعيله. تقول على لسان إحدى الشّخصيّات: "كنت أجلب الماء طوي النّل؛ لأوزّعه على بيوت الحارات الّتي لا تخرج نساؤها للماء."

- **حياة في ظلّ غياب الرجال:**

تبثّ الرّاوية من حين إلى آخر أنفاسا من الحريّة الّتي تشجع بها المرأة على إمكانيّة عيشها وتعاملها مع الحياة دون وجود رجل تقول: "النّساء وحدهن من يقدرن على فهم النّساء وحمايتهن فعلا."

- **التفرقة العرقيّة والطّبقيّة الاجتماعيّة:**

مازالت المجتمعات العربيّة تعاني من مثل هذه القضايا رغم تعارضها مع جوهر القيم الإسلاميّة. هذا ما جعل الكاتبة تستحضر في روايتها أبياتا نسبت لعليّ رضي الله عنه:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النّسب

فليس يغني الحسيب نسبته بلا لسان له ولا أدب

- **التّعليم وجنس المُتعلّم:**

تقول بشرى خلفان: "الجهل أشدّ من الضّعف، يقول أبي، ينخر الأمم من داخلها كجيش من الرّمة، ثمّ يجعلها تتهاوى عند أبسط لمسة من العدة. "السّور لا يحمي ابدا" كان يقول محاججا الكبار في المأتم: "العلم وحده يفعل ذلك."

في قولها هذا تأكيد على ضرورة تعليم الأطفال وخاصّة منهم الفتيات فالأفكار الجندريّة يغذيها الجهل ويقتلها العلم.

- **الغربة والمرأة والوطن:**

تشير الراويّة في الكثير من المواضع إلى مسألة علاقة المرأة بوطنها فما الفائدة من وطن أعيش فيه مكبلا مقيدا بقوانين وعادات عرفيّة وعرقيّة بالية تحت غطاء ما تُسمى بالعادات والتّقاليد تقول: "الغربة في القلوب ما في المكان."

ملخص الدّراسة وأهم الاستنتاجات:

- كشفت الدّراسة عن الظّروف الثّقافيّة والحضاريّة الّتي تؤدّي إلى التّحوّل الدّلاليّ لمصطلح "الجندر" من مجتمع الى آخر ومن زمن إلى آخر. فأفراد المجتمع الواحد مطالبون بتعديل أفكارهم ومعتقداتهم وأساليب معيشتهم وكذلك أنواع المعرفة لديهم لتواكب المتغيّرات من حولهم.
- ضرورة تعديل نظرة المجتمع إلى المرأة بوصفها شريكة حقيقيّة للحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة جنبا إلى جنب مع الرّجل.
- "الجندر" لم يعد ذاك الحقل المعرفيّ وإنّما أدمج في مختلف مظاهر الحياة ليصبح جزءا من الحياة العامّة بفضل جهود الأعمال النّسويّة التّي تحاول جاهدا إخراج تلك المفاهيم وتحويلها على وعيّ يعيد فهم وقراءة التّاريخ بمنظور جديد.
- الكشف عن قضايا الجندر والتّجاه النّسويّ في تفسير الواقع الاجتماعيّ للمرأة العُمانيّة في ظلّ الخصوصيّة الثّقافيّة للمجتمعات الخليجيّة.
- بيّنت الدّراسة أنّ الفكرة الطّبيعيّة المتأصلة للجنس البشريّ من شأنها أن تدعو الى الثّبات لا التّغيّر. وهي فكرة تُدعّم الخطاب العنصريّ ضدّ الفئة الاجتماعيّة الأضعف، وهي المرأة فالجنس البيولوجيّ ثابت بالميلاد لكنّ الخصال والصّفات السّلوك كلّها يتمّ زرعها بواسطة العمليّات الثّقافيّة فلا يولد بها المرء.
- أثبتت الدّراسة أنّ استحداث مفاهيم ثقافيّة جديدة كالجندر أثر تأثيرا إيجابيّا وإن كان بشكل غير مباشر في دور المرأة ممّا عزّز وغير صورتها ومكانتها ووضعيتها في المجتمع.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الأخرس (محمد صفوح): "إيديولوجيا الجسد: رموز الطّهارة والنّجاسة"، دار السّاقي لبنان، ط1، 1997م، ص02.

2- إدريس (عبد النور)، "النقد الجندريّ/تمثلات الجسد الانثويّ في الكتابة النّسائيّة، فضاءات للنّشر والتّوزيع، تونس، 2013.

3- بو فلافلة (محمّد): "سيميائيّة الخطاب السّرديّ العُمانيّ، رواية سيدات القمر للأدبية جوخة الحارثي نموذجا"، المكتبة العربيّ للمعارف، 2018م.

4- تحريشي (محمّد)، "قراءات في الخطاب الرّوائيّ"، لندن، ط1، 2001.

5- خضر (حيدر): "مفهوم الجندر دراسة في معناه ودلالته وجذوره وتياراته الفكريّة"، مجلة الاستغراب، العدد 16، من ص283-295.

6- خضير (ضياء)، "الأبيض والأسود في السّرد العُمانيّ ونقده"، الانتشار العربيّ، بيروت، ط1، 2015م.

7- خلفان (بشرى): "دلشاد رواية الجوع والشبع"، منشورات التّكوين، الكويت، 2000.

8- الدّرمكيّة (عائشة)، "كتاب سيميائيّة النّصّ الثّقافيّ في عُمان"، مؤسسة بيت الغشام للنّشر والتّرجمة، مسقط، ط1، 2013م.

9- السّامرائيّ (فليح)، "فضاءات الادب العثماني الحديث: التّشكل السّرديّ والاستهلالي في رواية سيدات القمر، لجوخه الحارثي"، جمعيّة الكاتب والأدباء، مسقط، 2023م.

10- الطّائي (عزيزة): "الخطاب السّردي العُماني/الأنواع والخصائص (1939-2010)، المؤسسة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 2019.

11- عتنا (ياسين): "مراجعة كتاب: من متغير الجنس إلى النّوع الاجتماعيّ"، مجلة تجسير، المجلد الأوّل، العدد الثّاني، ص150-155.

12- عنصر (العياشي): "الأسرة في الوطن العربيّ: أفاق النّحول من الأبويّة إلى الشّراكة"، مجلة عالم الفكر، المجلد 06، العدد 03، يناير مارس، ص01-45.

13- الكندري (محسن): " الرواية في عمان/ النشأة والتّطوّر، الحكي والمحكي في الرواية العُمانيّة"، المنتدى الأدبيّ، مسقط، ط2، 2011.

14- المعمري (يوسف): "قراءة في مضمرات عليّ المعمريّ الرّوائيّة/ دراسة سيميائيّة تأويليّة"، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2017.

15- مناد (سميرة): "صورة المرأة في المخيال الاجتماعيّ"، المجلة الحوار الثّقافيّ، المجلد 02، العدد 02، ص 111-115.

16- أبو نضال (نزيه): "تمرّد الأنثى في رواية المرأة العربيّة وبيليوغرافيا الرّوايّة النّسويّة 1885-2004"، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2005.